أنطوان بيرمان (*)

بيـــان الترجمـــة

يحاول صاحب النص تحديد المسار الذي يمكن أن تأخذه النظرية الحديثة في الترجمة. وهو المسار الذي ينطلق من تاريخ الترجمة، مرورا بتحديد أخلاقيتها ووصولا إلي ممارستها التحليلية.

هكذا، فبالإضافة إلى غنى القضايا التى يثيرها أنطوان بيرمان ووقوفه عند أبرز الأعلام والكتاب الذين اهتموا بقضايا الترجمة، فإن هناك إشارة جميلة من طرفه تخص ثقافتنا العربية. فقد تمت الإشارة إلى أن رواية دون كيخوت قد ترجمت عن العربية، وذلك بشهادة سرفانتس نفسه. وما يهمنا من هذا الحدث، ليس مدى حقيقته، ولكن مدى التأثير الذي مارسته الثقافة العربية ولغتها على الثقافة الغربية ونهضتها.

ظل حقل الترجمة على الدوام، ميدانا لتناقض غريب. فمن جهة، اعتبرت الترجمة ممارسة حدسية خالصة، تتوزع بين ما هو تقني وما هو أدبي، ولا يستلزم فى العمق أية نظرية ولا أي تأمل خاصين. ومن جهه أخرى، توجد منذ شيشرون Cice-ron وهوراس Horace والقديس جيروم St Jerome على الأقل، كتابات غزيرة حول الترجمة، وهي كتابات من طبيعة دينية وفلسفية وأدبية ومنهجية، بل وعلمية كما هو الشأن فى السنين الأخيرة. والحال، أنه بالرغم من كون العديد من المترجمين قد تحدثوا عن ممارستهم، فإن أغلب النصوص صدرت بدون شك، عن أشخاص لا يمارسون الترجمة، فتحديد « مشاكل » الترجمة شكل مجال اهتمام الثيولوجيين والفلاسفة واللسانيين والنقاد. وهو الأمر الذى نتجت عنه ثلاث مسائل على الأقل: فمن جهة، ظلت الترجمة بمثابة نشاط سري خفي، لأنها لا تفصح عن ذاتها بنفسها.

ومن جهة أخرى، بقيت الترجمة مجالا « غير مفكر فيه »، لأن دارسيها كانوا يعتبرونها أدبا ونقدا من الدرجة الثانية، ومجرد « لسانيات تطبيقية » ومن جهة ثالثة، فإن التحليلات التي يقوم بها بشكل حصري تقريبا، أشخاص لا يمارسون الترجمة، تتضمن حتما، ومهما كانت قيمتها، العديد من النقاط الغامضة وغير الدقيقة.

غير أن هذه الوضعية ستعرف تغيرا في القرن العشرين، حيث ظهرت إلي الوجود، العديد من النصوص حول الترجمة، أنجزها المترجمون أنفسهم.

أكثر من ذلك فإن التفكير في الترجمة أصبح ضرورة داخلية بالنسبة للترجمة ذاتها، وهو الأمر الذي بدا جليا فى الفكر الألماني الكلاسيكي والرومانسي. ولا يقدم هذا التفكير حتما، نظرية فى الترجمة، كما يؤكد فاليرى لاربو Valery Larbaud في كتابه « من وحي القديس جيروم »، إلا أنه يعلن

(*) اقتطف هذا النص من كتاب:
Antoine Berman, J' epreuve de l'etranger. Ed. Gallimard, 1984, pp. 11/ 24.

عن وجود إرادة لدى الترجمة في أن تصبح ممارسة مستقلة، وأن تموقع ذاتها وتبلغ رسالتها وأن يتم تدريسها ومشاطرتها اهتماماتها.

١- تاريخ الترجمة :

إن أول مهمة موكولة للنظرية الحديثة في الترجمة، تتمثل في تأسيس تاريخ لهذه الأخيرة. علما بأن الحداثة لا تعتمد الرؤية الماضوية، بل تستند على حركة استرجاعية تسمح بالتحكم في مسار الذات.

وبهذا المعنى، تأمل الشاعر والناقد والمترجم باوند Pound في تاريخ الشعر والنقد والترجمة. وبهذا المعنى أيضا، اقترنت الترجمات الجديدة في القرن العشرين، لنصوص دانتي Dante والعهد القديم وشكسبير واليونان إلخ .. بتأمل في الترجمات السابقة لهذه الأعمال[١]، ويجب أن يتسع مدى هذا التأمل وأن يتعمق أكثر. لذلك لا يمكننا الاكتفاء بالتحقيبات غير المؤكدة، التي حددها جورج شتاينر G. Steiner في مؤلفه « ما بعد بابل » بخصوص التاريخ الغربي للترجمة. فمن المستحيل الفصل بين هذا التاريخ، وتاريخ لغات وثقافات وآداب بل وأديان مختلف البلدان. ولا يتعلق الأمر هنا بخلط بين هذه التواريخ، بل بإبراز كيف تتمفصل ممارسة الترجمة في كل حقبة وضمن كل فضاء تاريخي، مع ممارسة الأدب واللغات ومع مختلف التبادلات بين الثقافات والألسن.

لنأخذ متالا للتوضيح: فقد بين ليونار فورستر L. Forster بأن الشعراء الأوروبيين كانوا عند نهاية القرون الوسطى وبداية عصر النهضة، متعددي اللغات في الغالب[٢]. فقد كانوا يكتبون نصوصهم بلغات عديدة، ويوجهونها إلى جمهور متلق، متعدد الألسن أيضا. لقد كانوا يقومون بترجمة ذاتية بمعنى من المعاني. ولدينا كشاهد على ذلك، الحالة المؤثرة للشاعر الهولندى هوفت Hooft، الذي ألف عند موت زوجته المحبوبة، سلسلة من المرثيات بالهولندية أولا، ثم باللاتينية وبالفرنسية، ومن جديد باللاتينية، ثم بالإيطالية وبعدها بالهولندية مرة أخرى. وكأنه كان في حاجة ماسة إلى سلسلة متنوعة من اللغات ومن الترجمات الذاتية، ليعبر بدقة عن ألمه بلغته الأم.

ويبدو واضحا من خلال قراءتنا لفورستر، أن شعراء تلك المرحلة، وسواء تعلق الأمر بالأوساط المثقفة أو الشعبية، كانوا يتطورون داخل محيط متعدد الألسن، أكثر مما هو عليه الحال في محيطنا الآن.

لكن وجبت الإشارة إلي أن اللغات كانت خاضعة لمنطق التمايز في تلك الفترة. فقد كانت هناك اللغات العالمة أو « السائدة » كما كان يقول سرفانتس Cervantes مثل اللاتينية واليونانية والعبرية. وكانت هناك مختلف اللغات الوطنية الأدبية، كالفرنسية والإنجليزية والإسبانية والإيطالية، وكانت توجد إلى جانبها اللغات الإقليمية واللهجات إلخ... فقد كان الشخص المتجول في أزقة باريس وأنفرس Anvers يسمع من اللغات، أكثر مما قد يسمعه حاليا شخص متجول بشوارع نيويورك. فلم تكن لغة الشخص الأول سوى لغة من بين لغات أخرى، وهو ما كان يمنح لمفهوم اللغة الأم دلالة نسبية. وفي مثل هذا الوسط، فإن الكتابة كانت تخصص بعض

الأنواع الشعرية لبعض اللغات: مثلا كان الشعراء المتجولون (التروبادورTroubadours) بإيطاليا في الفترة ما بين القرنين الثالث والخامس عشر، يقدمون القصيدة الغنائية باللهجة المحلية، والقصيدة الملحمية أو الحكائية بالفرنسية.

وفي هذا الإطار، فإن الشاعر ميلتون Milton كتب قصائدة الغزلية بالإيطالية فقط، وهو ما أقره في إحدي قصائده الموجهة إلي سيدة إيطالية:

إنها اللغة التي يتراءى بها الحب Questa e» « lingua di cui si vanta Amore وغني عن البيان، أن هاته السيدة كانت تعرف الإنجليزية أيضا، لكن هذه الأخيرة لم تكن لغة الحب.

إن معنى الترجمة والأدب بالنسبة لأشخاص مثل هوفت وميلتون، مختلف عن المعنى الذي نفهمه. فالبنسبة لنا، تعتبر الترجمات الذاتية استثناءات، شبيهة باختيار كاتب، لغة أخرى غير لغته الأم لكتابة نصوصه، وهذا هو حال كونراد Conrad وبيكيت Beckett. بل إننا نعتقد بأن تعدد الألسن أو اللهجات، يجعل الترجمة صعبة التحقيق. ذلك أن العلاقة باللغة الأم وباللغات الأجنبية وبالأدب وبالتعبير وبالترجمة، يتم بناؤها بشكل مغاير.

إن القيام بتأريخ للترجمة، معناه إعادة اكتشاف هذه الشبكة الثقافية المحيرة والمعقدة بشكل لا متناه، والتي تتحدد عبرها عملية الترجمة في كل حقبة وداخل فضاءات مختلفة. وهو ما يسمح للمعرفة التاريخية المحصل عليها بالانفتاح على حاضرنا.

٢- وضعية غير مريحة :

يتعلق الأمر فى التحليل الأخير، بمعرفة ما الذي تعنية الترجمة اليوم في حقلنا الثقافي؟ ومعلوم أن حدة هذا المشكل تزداد الآن إلي درجة الإيلام. وأنا أقصد بذلك مسألة لا يمكن السكوت عنها، وهي أن الوضعية المهمشة والمكبوتة والمرفوضة وغير المريحة للترجمة، تنعكس على وضعية المترجمين إلى درجة أنه لم يعد ممكنا في أيامنا هذه، اعتبار ممارسة الترجمة مستقلة بذاتها.

فوضعية الترجمة ليست فقط غير مريحة، بل تعتبر مشبوهة، سواء لدي الجمهور المتلقي أو لدى المترجمين أنفسهم . فبعد نجاحات كثيرة، وبعد بروز أعمال رائعة، وتجاوز عقبات كانت تبدو مستعصية، كيف يمكن اليوم استخدام المثل الإيطالى الشهير:« الترجمة خيانة Traduttore» traditte للتشهير بالترجمة ؟ صحيح أن مجال الترجمة لا زال يثير مسألة الأمانة والخيانة: « فأن نترجم، كما يقول فرانز رورنزفيغ F.Rosenzweig معناه أن نخدم سيدين»، وتلك هي استعارة الخادمة الموجودة في وضعية غير مريحة: فالأمر يتعلق بخدمة العمل المترجم والمؤلف واللغة الأجنبية (وذلك هو السيد الأول)، وخدمة الجمهور ولغة الترجمة (وذلك هو السيد الثاني). وهنا يبرز ما يمكن تسميته بمأساة المترجم. فإذا ما اختار هذا الأخير أن يكون سيده متمثلا في الكاتب والعمل المترجم واللغة الأجنبية، وعمل على فرض هذه العناصر جميعها على فضائه الثقافي، رغم طابعها الأجنبى، فإنه سيبدو كغريب، بل كخائن في أعين ذويه.

ومن المحتمل أن تنقلب هذه المحاولة الراديكالية التي يدعوها شلاير ماخر Schleiermacher بـ « جلب القارئ نحو المؤلف »، رأسا على عقب، وأن تنتج نصا غير مفهوم من طرف المتلقي.

أما إذا نجحت المحاولة، وتم الاعتراف بها لحسن الصدف، فإنه من المحتمل أن تشعر الثقافة الأخري بأنها « سرقت » وحرمت من عمل تعتبره ملكا لها بدون منازع. وهنا تبرز مسألة غاية في الخطورة، وهي العلاقة بين المترجم والكتَّاب الذين يترجم لهم.

بالمقابل، إذا ما اكتفى المترجم باقتباس العمل الأجنبي، وهو ما يدعوه شلاير ماخر بـ « جلب المؤلف نحو القارئ »، فإنه وإن كان سيرضي الجانب الأقل تشددا ضمن جمهوره، إلا أنه سيخون حتما العمل الأجنبي، وبالتالي سيخون جوهر الترجمة ذاته.

لا تعتبر هذه الوضعية الإشكالية بطبيعة الحال واقعة في حد ذاتها، لأنها تقوم على عدد لا يستهان به من الافتراضات الأيديولوجية. فجمهور القرن السادس عشر المثقف الذي تحدث عنه فورستر، كان يجد متعة في قراءة عمل ما بلغات مختلفة، وكان يجهل إشكالية الأمانة والخيانة لأنه لم يكن يقدس لغته الأم، ولربما كان هذا التقديس هو مصدر المثل الإيطالي المذكور وكل المشاكل المرتبطة بعملية الترجمة. أما جمهورنا المثقف، فيطالب بأن تكون الترجمة منحصرة داخل مجال مثير للشبهات. وهذا سبب من بين أسباب إمحاء المترجم الذي يتوارى بتواضع كبير خلف الأعمال الأجنبية ويعتبر خائنا رغم كل المجهودات التى يبذلها لنقل النص المترجم بأمانة. ونعتقد بأن الوقت قد حان للتأمل في هذا الوضع المكبوت للترجمة، وفي مجموع « المقاومات » التى تلاقيها هاته الأخيرة. وهو ما يمكن التعبير عنه بالصيغة التالية: إن كل ثقافة تقاوم الترجمة حتى لو كانت في حاجة ماسة إليها. فالهدف الأساسي للترجمة- والمتمثل في إقامة علاقة مع الآخر علي مستوى المكتوب وفي إخصاب الثقافة الخاصة عبر تلاقحها مع الثقافة الأجنبية - هو خلخلة البنية الإثنية المركزية Ethnocentrique لكل ثقافة حيث يسود نوع من النرجسية لدي المجتمعات التي تريد أن تجعل من ذواتها كيانات خالصة غير ممزوجة. والحال أن كل ترجمة تتضمن شيئا من العنف الناتج عن عملية التهجين. وقد انتبه هردر Herdes إلى ذلك ،حينما شبه اللغة التي لم تخضع للترجمة بعد، بفتاة عذراء. طبعا فإن عذرية ثقافة أو لغة ما تعتبر أمرا غير واقعي كما هو الشأن بالنسبة للعرق الخالص. ومع ذلك ،فإن هذا الأمر يظل قائما علي مستوى الرغبات اللاشعورية. فكل ثقافة تسعى لكي تكون مكتفية بذاتها، حتى تتمكن من خلال هذا الاكتفاء المتخيل، من بسط إشعاعها وسيطرتها على الثقافات الأخرى. ولدينا أمثلة واضحة فى الثقافة الرومانية القديمة والثقافة الفرنسية الكلاسيكية والثقافة الأمريكية الشمالية الحديثة.

في ضوء هذه المعطيات، يبدو وضع الترجمة غامضا، فهى من جهة، تخضع لإلزام استحواذي واختزالي وتصبح عاملا من عوامل هذا الإلزام، مما يؤدي إلي قيام ترجمات ذات نزعة إثينة مركزية أو ما يمكن تسميته « بالترجمة الرديئة ». ومن جهة أخرى، فإن الهدف الأخلاقي لعملية

الترجمة، يتعارض بطبيعته مع هذا الإلزام، لأن جوهر الترجمة هو الانفتاح والحوار والهجانة واللامتمركز. فالترجمة تستدعي إقامة العلاقة بين الذات والآخر، وإلا فقدت أساس وجودها. ويتجلى هذا التناقض بين الهدف الاختزالي للثقافة والهدف الأخلاقي للترجمة، على كل المستويات فهو يتجلى على مستوى نظريات ومناهج الترجمة [ضمن التعارض الدائم بين أنصار الترجمة الحرفية وأنصار ترجمة المعنى مثلا]، كما يتجلى على مستوى ممارسة الترجمة ذاتها وتأثير ذلك على نفسية المترجم. وهنا تستدعي الترجمة، لكي تكون قائمة الذات، ممارسة أخلاقية وتحليلية.

٢ـ أخلاقية الترجمة :

تتمثل أخلاقية الترجمة على المستوى النظري، في إبراز وتأكيد الهدف الخاص للترجمة والدفاع عنه. وتقوم أيضا على تحديد المقصود من « الأمانة »؛ إذ لا يمكن أن تعرف الترجمة فقط بألفاظ التواصل وتبليغ الرسائل وتوسيع مجال التبادل. كما أن الترجمة ليست نشاطا أدبيا وجماليا خالصا، رغم أنها مرتبطة أشد الارتباط بالممارسة الأدبية القائمة داخل فضاء ثقافي معين. فأن نترجم معناه أن نكتب ونبلغ ما كتبناه. لكن هذه الكتابة وهذا التبليغ لا يكتسبان معناهما الحقيقي إلا عبر الهدف الأخلاقي الذي ينظمهما. وبذلك تكون الترجمة أقرب إلى العلم منها إلى الفن. هذا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار غياب المسؤولية الأخلاقية ف المجال الفني.

تتمثل إحدى المهام الأساسية لنظرية الترجمة، في تحديد هذا الهدف الأخلاقي بالضبط، وبالتالي في إخراج الترجمة من « الغيتو » الأيديولوجي الذي تتواجد فيه. لكن هذه الأخلاقية الإيجابية تفترض بدورها شيئين اثنين وهما: الأخلاقية السلبية والممارسة التحليلية.

فالأخلاقية السلبية تعني نظرية في القيم الأيديولوجية والأدبية، وهدفها هو صرف الترجمة عن مقصدها الحقيقي. وتجدر الإشارة إلى أن نظرية الترجمة غير المتمركزة على ذاتها إثنيا، قد تصبح نظرية ذات نزعة إثنية مركزية وتؤدي إلى قيام ترجمة رديئة. وأدعو « ترجمة رديئة »، تلك التي تقوم بنفي ممنهج لغرابة العمل الأجنبي بحجة التبليغ.

٤-الممارسة التحليلية للترجمة :

الأخلاقية السلبية هي في حاجة إلى متمم لها، وهو ما تمثله الممارسة التحليلية للترجمة. فالمقاومة الثقافية تنتج نسقا للتشويه، يطال المستوى اللساني والأدبي ويخضع المترجم لشورطه، سواء أراد ذلك أم لم يرد، وسواء كان على وعي بذلك أم لم يكن. وتبدو جدلية الأمانة والخيانة حاضرة لدى هذا المترجم، حيث تبين عن غموض وضعيته ككاتب؛ ذلك أن المترجم القح هو الذي يحتاج إلى الكتابة، انطلاقا من عمل ولغة وكاتب ينتميان إلى ثقافة أجنبية. وهذه الإحاطة جديرة بالاهتمام، إذ أن المترجم شخص متأرجح على المستوى النفسي، فهو يريد ممارسة عمله على واجهتين: واجهة إلزام لغته على اكتساب الغرابة، وواجهة إلزام الأخرى على الاغتراب داخل لغته الأم[٣]. فهو مؤلف بمعنى من المعاني، لكنه ليس مؤلفا حقيقيا، وعمل الترجمة لديه ليس عملا حقيقيا كذلك.

وهذه الشبكة من التأرجحات، تنزع نحو تشويه الترجمة الخالصة والانضمام إلى النسق الأيديولوجي المشوه الذي تحدثنا عنه، وإلى تقويته. ولكي لا يكون الهدف الخالص للترجمة مجرد أماني أو « مبدأ ملزم » بالمعنى الكانطي للكلمة، فإنه من اللازم أن تُضاف الممارسة التحليلية إلى أخلاقية الترجمة. فالمترجم مطالب بالقيام بممارسة تحليلية يكتشف من خلالها الأنساق المشوهة التي تهدد بطريقة لا واعية، اختياراته اللسانية والأدبية. وتنتمي هذه الأنساق إلى سجلات اللغة والأيديولوجيا والآداب ونفسية المترجم، إلى الحد الذي يمكن معه الحديث عن تحليل نفسي للترجمة، مثلما كان باشلار Bachelard يتحدث عن تحليل نفسي للعقل العلمي؛ ففي الترجمة مثلما في العلم، هناك نفس المجاهدة ونفس العملية المتمحورة حول الذات. ويمكن التحقق من هذه الممارسة التحليلية من خلال التحليلات الشاملة والمحصورة التي يتم القيام بها. فإذا ما أخذنا رواية على سبيل المثال، فإن بإمكاننا دراسة نسق الترجمة التي خضعت له. هكذا ففي حالة الترجمة ذات النزعة الإثنية المركزية ينزع هذا النسق إلى هدم النسق الأصلي. وبإمكان أي مترجم أن يلاحظ التأثير الخطير لهذا النسق الواعي. ومن اللازم أن تكون هذه الممارسة التحليلية تعددية، لأن طبيعتها تستوجب ذلك. وهو ما يسمح لنا بالقيام بممارسة مفتوحة وغير معزولة للترجمة، كما سيسمح لنا بتأسيس نقد للترجمات يكون موازيا ومتكاملا مع نقد النصوص. أكثر من ذلك، فإن هذه الممارسة التحليلية للترجمة يمكن أن تتعزز بتحليل نصي يتم في أفق الترجمة ذاتها: إذ إن كل نص معروض للترجمة يمثل نسقية خاصة، تلاقيها حركة الترجمة وتواجهها وتكشف عنها. وبهذا المعنى أمكن لباوند Pound القول بأن الترجمة هي نوع من النقد المتولد ذاتيا Sui generis، وذلك بالقدر الذي تكشف فيه عن البنيات الخفية للنص. ونعتقد بأن نظام هذا العمل، هو الذي يثير المقاومة ضد الترجمة، ويسمح في نفس الوقت بقيامها ومنحها معنى ما.

٥- الواجهة الأخرى للنص :

في هذا الإطار أيضا، تبرز ضرورة تحليل نسق « الأرباح » و« الخسائر » ضمن كل ترجمة، ولو كانت مكتملة. وهو ما ندعوه بالطابع التقريبي لعملية الترجمة.

بإقرار نوفاليس Novalis بأن الترجمة « شحن » للنص الأصلي، فهو قد ساهم بشكل ضمني، في إشعارنا بأن الأرباح والخسائر لا تحصل بنفس الدرجة. ومعنى ذلك، أن الترجمة لا تتضمن فقط نسبة مئوية من الأرباح والخسائر؛ فإلى جانب هذا المستوى الذي لا يقبل الجدل، هناك مستوى أو شيء آخر، تظهره ترجمة النص الأصلي، علما بأن لغة هذا الأخير لم تفلح في إظهاره.

فالترجمة تساهم في دوران العمل المترجم وتكشف عن واجهة أخرى. فما هي طبيعتها ونوعيتها؟ ذلك ما يجب علينا إدراكه بدقة.

الممارسة التحليلية للترجمة، مطالبة بتقديم معلومات عن العمل المترجم وعن علاقته بلغته الخاصة وباللغة عموما. وهي أمور لا يمكن للقراءة وحدها ولا للنقد وحده أن يعملا على كشفها.

فبإعادة إنتاج نسق العمل كما هو موجود داخل لغته الخاصة، تقلب الترجمة هذه اللغة رأسا على عقب، وبذلك تكون قد حققت ربحا وعملت على « شحن » لغة النص المترجم.

وللإشارة فإن غوته Goethe كان قد توصل إلى نفس النتيجة، وبنوع من الحدس، حينما تحدث عن عملية« التجدد ». ففي كثير من الأحيان، « يتجدد » العمل المترجم، ليس فقط على المستوى الثقافي أو الاجتماعي، بل على مستوى منطوقه كذلك. ويتوافق هذا الأمر مع واقعة أخرى، وهي أن لغة الترجمة تساهم في انبعاث إمكانيات خفية، وتعمل على استحضارها ونشرها بطريقة مغايرة لما يقوم به الأدب. فهولدرلين Holderlin مثلا، فتح أمام اللغة الألمانية إمكانات مساوية وليست مشابهة للإمكانات التي فتحها كمترجم.

٦- الهدف الميتافيزيقي والدافع إلى الترجمة :

أريد الآن القيام بفحص وجيز للكيفية التي يتمفصل من خلالها الهدف الأخلاقي الخالص للترجمة مع الهدف الميتافيزيقي لهذه الأخيرة، ومع ما يمكن تسميته بالدافع إلى الترجمة. وأقصد بذلك رغبة المترجم في أن يكون مترجما، والتي يمكن تحديدها انطلاقا من المفهوم الفرويدي للفظة « الدافع ». وكما يؤكد فاليري لاربو، فإن هذا المفهوم يحمل شحنة جنسية في معناه الشاسع، فما المقصود إذن بالهدف الميتافيزيقي للترجمة؟

في نص له بعنوان « مهمة المترجم » والذي يعتبر على وجه التقريب مرجعا أساسيا بالنسبة لكل مهتم بقضايا الترجمة، تحدث والتر بنيامين W. Benjamin عن هذه المهمة المتمثلة في البحث عن « اللغة الخالصة » التي تتضمنها كل لغة، فيما وراء تعدد اللغات الإمبريقية، وكأنها صدى لمرحلة ولت. إن الهدف المغاير كليا للهدف الأخلاقي، يعتبر ميتافيزيقيا، وذلك بالقدر الذي يبحث فيه، وبطريقة أفلاطونية، عن « ما وراء » حقيقي للغات الطبيعية. وكما أشار بنيامين إلى ذلك، فإن الرومانسيين الألمان، وعلى رأسهم نوفاليس، هم الذين عبروا عن هذا الهدف بقوة. هكذا ستصبح الترجمة بمثابة نقيض لبابل أي لسيادة الاختلافات والتجريبية. والغريب أن هذا الأمر كان هو الهدف الأول المتوخى من الدافع الخالص للترجمة، كما برز مثلا لدى شليغل A. W. Schlegel وأرمان روبين A. Robin ؛ فالرغبة في ترجمة كل شيء، بحيث يصبح عمل المترجم تعدديا وكليا poly- omni Traducteur، يرتبط لديهما بعلاقة إشكالية، إن لم نقل صراعية مع لغتهما الأم.

فاللغة الألمانية بالنسبة لشليغل، هي لغة ملتوية وجافة، وهي وإن كانت قادرة على « الاشتغال »، فإنها ليست قادرة على « اللعب ». لذا، فإن الهدف من الترجمة التعددية هو إخضاع اللغة الأم للعب.

ويلتقي هذا الهدف ويتداخل مع الهدف الأخلاقي لدى همبولدت Humboldt، الذي يعتبر بأن مهمة الترجمة هي « توسيع » أفق اللغة الألمانية. وفي الواقع، فإن الدافع إلى الترجمة، يحدد لنفسه هدفا بعيدا عن كل مشروع إنسي. إذ إن الترجمة التعددية تصبح هدفا في حد ذاتها، بحيث يتحدد جوهرها في تغيير طبيعة اللغة الأم بشكل

جذري. فالدافع إلى الترجمة ينطلق دوما من رفض ما يدعوه شلاير ماخر بـ « الراحة الحميمية للغة Das heimicheswohlbefinden « der sprache. إن الدافع إلى الترجمة، يفترض دوما أن هناك لغة أخرى متفوقة أنطولوجيا على اللغة الأم. وهنا يطرح السؤال: ألا يشعر المترجم أثناء ممارسته الأولى للترجمة، بأن لغته ضعيفة وفقيرة أمام الغنى اللغوي للعمل الأجنبي؟

هكذا يخضع اختلاف اللغات، أي تباين اللغات الأخرى واللغة الأم، إلى التراتبية؛ فاللغتان الإنجليزية والإسبانية مثلا، تعتبران أكثر مرونة وواقعية وغنى من اللغة الفرنسية! ولا علاقة لهذه التراتبية بالنظرة الموضوعية؛ فمنها ينطلق المترجم، وهي التي يواجه أثناء ممارسته ويعمل على تأكيدها باستمرار. وتوضح حالة أرمان روبين بجلاء هذا الحقد تجاه اللغة الأم، والذي يعتبر بمثابة الدافع إلى الترجمة. فروبين يتوفر على لغتين- أم، إن صح القول وهما: الفسيل Fissel [وهي لهجة سائدة بمنطقة البروطون]، والفرنسية. وتستند الترجمة التعددية لديه، على هذا الحقد تجاه لغته الأم « الثانية »، وهي الفرنسية التي يعتبرها مثقلة بالخطايا حيث يقول:« إنني أحب اللغات الأجنبية أكثر، وأعتبرها خالصة ومتميزة؛ أما لغتي الفرنسية [لغتي الثانية]، فلقد تواجدت فيها كل الخيانات. ففي إطارها تعلم الناس قبول الدناءة ». إن الهدف الميتافيزيقي المتمثل في تجاوز غايات اللغات التجريبية واللغة الأم، وفي التوق نحو كلمة حقيقية، تكون حسب تعبير روبين، هي « كلمة الحقيقة وليست مجرد كلمات »، يرتبط بالدافع الخالص إلى الترجمة الذي يروم تحويل اللغة الأم، عبر مواجهتها مع لغات أجنبية تعتبر متفوقة عليها، أي مرنة أكثر ولعوبة وخالصة أكثر.

ويمكننا القول، بأن الهدف الميتافيزيقي للترجمة هو بمثابة إعلاء رديء للدافع إليها، في حين أن الهدف الأخلاقي هو بمثابة تجاوز لها. وبالفعل، فإن الدافع إلى الترجمة يعتبر هو الأساس النفسي للهدف الأخلاقي، وإلا كان هذا الأخير مجرد إلزام لا حول له ولا قوة. فعملية المحاكاة التي تقوم بها الترجمة دافعة بالضرورة، لكنها تتجاوز الفعل الدافع، لأنها تريد أن تكون مجرد مهدم ومحول سري للغة الأم، كما يأمل كل من الهدف الميتافيزيقي والهدف الأخلاقي؛ ففي إطار التجاوز الذي يمثله هذا الهدف الأخير، تبرز رغبة أخرى، وهي إقامة علاقة حوارية Dialogique بين اللغة الأجنبية واللغة الأم.

هكذا يعتبر تاريخ الترجمة وأخلاقيتها وممارستها التحليلية، بمثابة المحاور الثلاثة التي يمكن تحديد تأمل حديث في ترجمة المترجمين.

٧- الترجمة وعملية التناص :

يمكننا أن نضيف محورا رابعا، يهم مجال نظرية الأدب وعملية التناص؛ ذلك أن العمل الأدبي الحقيقي يتم عبر أفق الترجمة. وتعتبر رواية دون كيخوت أنصع مثال على ذلك. ففي هذه الرواية، يخبرنا سرفانتس بأن مخطوط

مغامرات بطله قد ترجم عن العربية. كما زعم بأن النص الأصلي قد كتب من طرف مغربي يدعى السيد حامد بنجلي Cid hamed Bengeli. إضافة إلى ذلك، فإن دون كيخوت، سيتباحث مع القس لمرات عديدة وبطريقة أكاديمية Doctement في موضوع الترجمة. هذا مع العلم بأن أغلب الروايات التي قرأها البطل والتي زرعت البلبلة بعقله، كانت مترجمة.

إن الأمر المثير للسخرية، هو كون مؤلف أروع رواية إسبانية يعترف أمام القارئ بأن روايته مترجمة عن العربية، أي عن اللغة التي كانت مهيمنة على شبه الجزيرة الإبيرية مدة قرون. وهو ما يمكن أن يقدم لنا درسا حول الوعي الثقافي الإسباني آنذاك، وأيضا حول علاقة الأدب بالترجمة. وقد تم التحقق من هذه العلاقة على مدى قرون: من شعراء القرنين الخامس والسادس عشر إلى هولدرلين ونرفال وبودلير وملارمي وريلكه وبنيامين وباوند وجويس وبيكيت. فبالنسبة لنظرية الترجمة، يوجد حقل غني للبحث، شريطة أن يتجاوز الإطار الضيق للتناص وأن يرتبط بالانشغالات حول اللغات والثقافات بشكل عام. إنه حقل متعدد التخصصات pluridisciplinaire يسمح للمترجمين بالاشتغال بشكل مثمر مع الكاتب ومنظري الأدب والمحللين النفسانيين واللسانيين.

= = = = = = = = = = = =

الهوامش :

1- Cf. " pourquoi retraduire Shakespeare? "de Pierre Leyris, avant- propos aux CEuvres de Shakespeare, club du livre.

2- The poet's Tongues, Multilingualism in literature, Cambridge university press, 1970.

٣- يمكن مقارنة هذه الوضعية، بوضعية الكُتَّاب غير الفرنسيين الذين يكتبون بالفرنسية. ويتعلق الأمر بآداب البلدان الفرنكفونية في المقام الأول، وأيضا بأعمال مكتوبة بالفرنسية من طرف كتاب لا ينتمون إلى المناطق الفرنكفونية، كما هو الشأن بالنسبة لبيكيت. وتصنف هذه الإنتاجات في خانة « الفرنسية الأجنبية »، لأنها كتبت بالفرنسية من طرف أجانب، وتحمل علامة هذه الغرابة على مستوى اللغة والموضوعات. وحتى وإن كانت لغة هاته الإنتاجات شبيهة أحيانا بفرنسية الفرنسيين المتوجودين بفرنسا، فإن هناك هوة قائمة بهذا القدر أو ذاك، تفصل بين اللغتين، هوة شبيهة بتلك التي تفصل بين فرنسية الفرنسيين والعبارات الفرنسية الموجودة بروايتي « الحرب والسلام » و « الجبل السحري ». وتربط بين هذه الفرنسية الأجنبية وفرنسية الترجمة علاقة متينة، حيث نكون من جهة، أمام أجانب يكتبون بالفرنسية ويطبعونها بطابع غرابتهم، ونكون من جهة أخرى، أمام أعمال أجنبية أعيدت كتابتها بالفرنسية، مما سيمكنها من السكن داخل هذه الأخيرة ووسمها بغرابتها.

ويعتبر بيكيت أبرز مثال على هذا التقارب بين الفرنسيتين، ما دام قد كتب بعض أعماله بالفرنسية، وترجم بنفسه بعض مؤلفاته المكتوبة بالإنجليزية إلى الفرنسية.

تنتمي مثل هذه الأعمال في العديد من الحالات إلى فضاءات لسانية ثنائية أو تعددية، تحتل فيها اللغة الفرنسية وضعا خاصا، باعتبارها لغة الأقلية المهيمن عليها أو المهيمنة، والتي تواجه اللغات الأخرى وتدخل في علاقات صراعية معها. وتختلف هذه الحالة عما هو عليه الأمر في فرنسا، إذ رغم وجود لغات محلية، فإننا نتلمس واقعا أحادي اللغة. وستولد هذه الوضعية أعمالا موسومة بعلامة مزدوجة: فهي تنزع، باعتبارها أعمالا أجنبية تستعمل فرنسية « هامشية »، إلى اتخاذ طابع محلي Vernaculaire متضمن لتعابير شعبية. وباعتبارها مكتوبة بالفرنسية، ولتأكيد انتمائها إلى ثقافة محددة ومعارضتها للغات المهيمنة القريبة منها، فإنها تنزع إلى استعمال فرنسية أكثر « نقاء » من تلك الموجودة بفرنسا. ويمكننا أن نجد هذين النزوعين معا في نفس العمل. كما هو الشأن في كتابة إدوار كليسان E. Glissand، وسيمون شفارتز بارت S. Schwartz Bart.

وكيفما كان الحال، فإن النص الفرنسي الأجنبي يبدو « مغايرا » للنص الفرنسي بفرنسا. وهذان الاتجاهان المتصارعان يشبهان كتابة المترجم الذي يحاول أثناء مواجهته لنص أجنبي « آخر »، الدفاع عن لغته [تقوية لغته الفرنسية مثلا]، وجعلها منفتحة على العنصر الأجنبي.

ولا غرابة في كون هدف المترجم، المتمثل في إثراء لغته، هو نفس الهدف الذي يتوخاه العديد من الكتاب. وقد صرح الشاعر الموريسي Mauricien إدوار مونيك E. Maunick بهذا الصدد قائلا: « إنني أريد تخصيب اللغة الفرنسية ». [انظر، الكتابة، ولكن بأية لغة؟ جريدة لوموند Le monde بتاريخ ١١/ ٣/ ١٩٨٣].

* * * *

This document was created with Win2PDF available at http://www.win2pdf.com.
The unregistered version of Win2PDF is for evaluation or non-commercial use only.
This page will not be added after purchasing Win2PDF.